

مركزية المعرفة في "مدينة الشمس"

قراءة في يوتوبيا الفيلسوف الإيطالي توماسو كامبنيلا



محمد قنفودي
باحث مغربي

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without 3 orders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

الملخص:

نخصّص هذا البحث للنظر في فكر الفيلسوف الإيطالي كامبانيلا، استناداً إلى قراءتنا لكتابه "مدينة الشمس"، خاصة أنّ هذا الأخير لم ينل اهتماماً بارزاً في مجالنا التداولي الفلسفي العربي، وكذلك رغبة في تبيان نتائج تطور الأعمال الطوبوية، سواء في شكلها الأدبي أو مضامين أسسها المبنية على التصور المثالي لساكنة "مدينة الشمس"¹، وهو تطور لن يتوقف عند كامبانيلا، بل سيعرف تطوراً مهماً، بقدر ما سيؤسس لفلسفات جديدة. سيسهم في توسعة إدراكنا للتحوّل الذي طرأ على هذا المجال الفلسفي، بداية من العصور الوسطى وانتهاء بالعصر الفلسفي الغربي الحديث.

يضم البحث أربعة محاور أساسية، سيكون في أولها تفصيل عن حياة واحد من أبرز كتّاب الأدب اليوتوبي هو الإيطالي توماسو كامبانيلا وظروف حياته ونشأته، وفي المحور الثاني سننجز قراءة لكتابه في هذا النمط من الكتابة، وهو (مدينة الشمس)، من خلال إبراز أهم أفكاره، فضلاً عن ظروف كتابته سواء الشخصية أو المحيطة به، أما المحور الثالث، فنخصصه لتفصيل الأسس التي بنيت عليها مدينته الفاضلة، سواء الدينية أو السياسية أو الاجتماعية وغيرها، وأخيراً في المحور الرابع، سنعمل على تفصيل سمات «مدينة الشمس» ومميزاتها.

1 TEUVO PELTONIEMI, **FINNISH UTOPIAN SETTLEMENTS IN NORTH AMERICA**, A paper presented at the Third FinnForum, September 5-8, 1984, Turku, Finland. Published in: Karni, Michael G. & Koivukangas, Olavi & Laine, Edward W. (eds.): *Finns in North America*. Institute of Migration C9. Turku 1988, p: 1

مقدمة:

يسعى هذا البحث، إلى التعريف بالفيلسوف الإيطالي توماسو كامبانيلا Tommaso Campanella، من خلال إبراز إرثه الفكري والفلسفي، ومساهمته في الأعمال الطوبوية التي كان لها الأثر الدال في بلورة العصر الفلسفي الغربي الحديث. وذلك من خلال الوقوف عند كتابه (مدينة الشمس The City Of Sun) والذي يعد من أهم اليوتوبيات بعد كتاب «يوتوبيا» لتوماس مور¹، حيث أنّ الظروف القاسية التي ألف من خلالها الكتاب، فضلاً عن خلفيته الاجتماعية وتكوينه ووظيفته الدينية، مكنته من إنتاج عمل مختلف عن مور، الشيء الذي أسهم في إغناء التنوع الأدبي الطوبوي بعدة أوجه فنية من الناحية الأدبية.

هذا التوجه الذي ظهر مع كامبانيلا، لم يكن ليظهر فقط التنوع الممكن في إنتاج الأعمال الطوبوية، بل أيضاً سعى إلى خلق ارتباط جديد، لم يخرج بالأساس من المخيال السياسي لكتابه، لكنه أضاف لونا أدبيا في الكتابة، يعتمد على بناء التصورات التخيلية الممكنة، رغبة في تغيير الواقع من الناحية السياسية والاجتماعية والدينية، بلغة حية وبسيطة في تناول جميع المستويات الثقافية، ومبتعدة عن الأدب الكلاسيكي، أو اللغة الراقية التي هي فقط في تناول نخبة من المثقفين والمفكرين.

وقد تأثرت الكتابة اليوتوبية خلال عصر النهضة، وهي التي بدأت مع توماس مور وبعده كامبانيلا وغيرهم، بتيارات عديدة أحدثت فعلها في هذا العصر (عصر النهضة)، خاصة تأثرها بتطور الحركة العلمية والفنية الهائلة، وبالاكتشافات الجغرافية والتعرف على جزر جديدة وسواحل نائية، وما ترتب على ذلك من ازدياد النشاط التجاري وما صاحبه من نمو اقتصادي للعديد من المدن الأوروبية، وظهور النزعات القومية وميل مجتمع النهضة إلى تأكيد النزعة الفردية للإنسان².

وبالتالي، فتناول هذا الورقة للفيلسوف الإيطالي كامبانيلا، هو رغبة في التعريف بكتابه «مدينة الشمس»، خاصة أنّ هذا الأخير لم ينل اهتماماً بارزاً في مجالنا التداولي الفلسفي العربي، وكذلك رغبة في تبيان نتائج تطور الأعمال الطوبوية، سواء في شكلها الأدبي أو مضامين أسسها المبنية على التصور المثالي لسكان «مدينة الشمس»³، وهو تطور لن يتوقف عند كامبانيلا، بل سيعرف تطوراً مهماً، بقدر ما سيؤسس لفلسفات جديدة. سيسهم في توسعة إدراكنا للتحوّل الذي طرأ على هذا المجال الفلسفي، بداية من العصور الوسطى وانتهاء بالعصر الفلسفي الغربي الحديث.

1 يعد الأديب والفيلسوف الإنجليزي توماس مور (1480-1535م)، أول من صاغ كلمة يوتوبيا أو "أوتوبيا" في نطقها اليوناني، من خلال كتابه "كتاب مفيد وممتع حقاً عن الحكومة المثلى للدولة والجزيرة الجديدة المسماة يوتوبيا"، والذي ألفه سنة 1516م.

2 عطيات أبو السعود، الأمل واليوتوبيا في فلسفة إرنست بلوخ، منشأة المعارف بالإسكندرية، الطبعة الأولى 1997، ص 270

3 TEUVO PELTONIEMI, FINNISH UTOPIAN SETTLEMENTS IN NORTH AMERICA, A paper presented at the Third FinnForum, September 5-8, 1984, Turku, Finland. Published in: Karni, Michael G. & Koivukangas, Olavi & Laine, Edward W. (eds.): Finns in North America. Institute of Migration C9. Turku 1988, p: 1

وتضم الورقة أربعة محاور أساسية، سيكون في أولها تفصيل عن حياة كامبانيلا وظروف حياته ونشأته، وفي المحور الثاني تلخيص لكتابه (مدينة الشمس)، من خلال إبراز أهم أفكاره، فضلاً عن ظروف كتابته سواء الشخصية أو المحيطة به، أما المحور الثالث، فنخصصه لتفصيل الأسس التي بنيت عليها مدينته الفاضلة، سواء الدينية أو السياسية أو الاجتماعية وغيرها، وأخيراً في المحور الرابع، سنعمل على تفصيل سمات «مدينة الشمس» ومميزاتها.

المحور الأول: توماسو كامبانيلا.. نشأته، حياته وتكوينه الفكري

ولد الفيلسوف الإيطالي كامبانيلا في سنة 1568 في ستيلو بكالابريا، وقد تم تعميده باسم جوفان دومينيكو كامبانيلا، ووضع في الدير وهو لا يزال طفلاً، وعند بلوغه سن الرابعة عشرة من عمره، أدخل للنظام الدومينيكاني، وأطلق عليه اسم توماسو، تيمناً بالقديس توما الأكويني Thomas Aquinas. وعلى الرغم من نشأته الدينية، إلا أن كامبانيلا صرح بعد ذلك بأنه اختار حياة الرهبنة ليشبع رغبته في الدراسة، ولم يخترها تلبية لنداء الدين⁴. وقد ولد توماسو لأسرة فقيرة في بلدة صغيرة، ولوالدين بسيطين لا يعرفان القراءة والكتابة، إلا أن نبوغه وذكاءه برز في وقت مبكر، حيث سمع بقدراته كل المحيطين به في الكنائس والمدارس، وكان يضرب بذكائه المثل بين أقرانه، فضلاً عن نهمة في الدراسة والمعرفة على مستوى عال⁵. ولعل العوز المادي لأسرته، كان الدافع وراء وضعه في الدير الكنسي، رغبة في أن ينال ابنهم ما يستحق من المعرفة والتعلم على حساب الكنيسة. وهو الأمر الذي ساعده بشكل أساسي في صقل معارفه ومدرسته العلمية.

ويعد كامبانيلا، واحداً من أبرز المفكرين والشعراء الإيطاليين، وعرف عنه ومنذ صغره تملكه لملاكات «فريدة»، طبعت شخصيته الأدبية والفلسفية، منها تمكنه في سن مبكرة (13 سنة) من نظم القصائد الشعرية، ومحاولاته فهم نظم معقدة. وقد قبل وهو ما يزال طفلاً لحضور دروس أحد الرهبان في الفلسفة ومتابعتها بدير الدومينيكان ستيلو. حيث أعجب حينها بالبرت الكبير كإعجابه بالقديس توماس، وتحمس كثيراً لأفكارهما وفلسفتهم، فعزم على تتبع خطاهما⁶.

هذه المسيرة العلمية في مرحلة الطفولة، صقلت الكثير من معارف كامبانيلا، ولعبت دوراً في إنتاج هذا الفيلسوف، الذي وعلى الرغم من انتمائه للكهنة الكاثوليك، إلا أنه ترك لأفكاره حرية التمرد على الكنيسة والطبيعة، خاصة بعد قراءته لأعمال الفيلسوف برناردينو ديليسيو Bernardino Telesio (1509-

4 ماريالويزا برنيري، المدينة الفاضلة عبر التاريخ، ترجمة عطيات أبو السعود، عالم المعرفة العدد 225، ديسمبر 1997، ص 120

5 TOMMASO CAMPANELLA, LA CITÉ DU SOLEIL ou L'Idée d'une république philosophique, Préface Louise Colet, une anthologie de Francis Lacassin aux éditions Laffont, collection bouquin. Oeuvres choisies de Campanella, précédées d'une notice, Paris Lavigne, 1844. p: 2

6 Ibid, p: 2

(1588)، حيث تأثر به كثيرًا، وكان له الفضل في تحول مساره الحياتي بشكل كبير، إلا أن ذلك سيكونه التضحية بسنوات عديدة من حياته داخل السجن، بسبب خلافه الفكري مع الكنيسة⁷.

وفضلاً عن ذلك، فقد استفاد من كثير من الشخصيات الدينية والعلمية والفلسفية، حيث كانت شهيته الفكرية لا تعرف الحدود، وأعلن بنفسه أنه قد درس فلسفات فيثاغورس، أبيقور، أفلاطون، طاليس، والرواقيين، فضلاً عن تجميعه المعرفي لمعطيات متنوعة من كل الطوائف القديمة والحديثة، وقوانين الشعوب القديمة، والعبرانيين والترك والفرس والمور والصينيين والتتار وغيرهم، ولا يبدو أن هذا كان تفاخراً، إذ يبدو من خلال كتاباته مناقشته لكثير من التفاصيل والمواضيع الأكثر تنوعاً، والتي تبرز حقاً سعة اطلاعه المعرفي⁸.

كان كامبنيلا غزير الإنتاج من كتب وأشعار ومقالات وغيرها، حيث بدأ الكتابة في سن التاسعة عشرة، وقام بنشر كتابات يدافع فيها عن ديليسيو، بعد أن استهوته أفكاره، خاصة نقده الشديد للفيلسوف أرسطو، فكان كامبنيلا يدافع على ديليسيو من جانب ضرورة أعمال الحواس من أجل فهم الواقع والطبيعة، والابتعاد عن الإيمان الأعمى والاكتفاء بالنظريات الميتافيزيقية الجاهزة، وهو ما كان يتعارض فعلاً مع طريقة أرسطو الدراسية⁹، وبالتالي فكامبنيلا أراد أن يؤسس لفلسفة مبتعدة عن التفسيرات الغيبية، من خلال إخضاعها للعلم وقوانين الطبيعة، والتحقق التجريبي، وهو ما كان يتعارض مع مبادئ الكنيسة، التي تربي بين أعضائها.

ولم يكتف كامبنيلا بمناقشة أفكار أرسطو، ودعوته لتجريبية الفلسفة، عن طريق الابتعاد عن الأحكام الجاهزة أو التفسيرات الغيبية، بل أيضاً كانت له آراء ومواقف في ما يخص حركية الكون، حيث أنه حاجج عدداً من الفلاسفة الذين دافعوا على أطروحة ثبات الكون والنجوم، في حين كان يؤكد على ما ذهب إليه «جاليلو» بمراحل كوكب الزهرة التي اكتشفها من خلال مراقبة الكواكب عبر التيليسكوب، ويضيف أن نفي وجود الحركة في الكون، هو عكس ما تثبته حواسنا، وبالتالي فإن التصديق يكون للحواس الممارسة للعملية التجريبية، وليس الاكتفاء بالمنهج النظري دون التدقيق العلمي عبر التجربة¹⁰.

ويمكن فهم اتجاه كامبنيلا العلمي، بالوسط الفلسفي العام الذي كان يسود أوروبا بشكل عام وإيطاليا بشكل خاص، حيث أن القرن السابع عشر، كان مرحلة حاسمة وممهدة للفلسفة الحديثة، خاصة مع «كوبرنيكوس»

7 CAHIERS LASALLIENS, **THE CONDUCT OF SCHOOLS A COMPARATIVE APPROACH**, Brother Léon LAURAIRE, F.S.C., MAISON SAINT JEAN-BAPTISTE DE LA SALLE - 476, VIA AURELIA – ROME, ROME 2011, p: 63

8 CAMPANELLA THOMAS, **La cité du soleil**, Spanish translation and commentary by Emilio G. Estebanez, Zero, Madrid 1984. p: 5

9 PHYLLIS A. HALL, **The Appreciation of Technology in Campanella's "The City of the Sun", Technology and Culture**, Published by: The Johns Hopkins University Press and the Society for the History of Technology, Vol. 34, No. 3 (Jul 1993), p: 614

10 Ibid, p: 614

و«كبلر» و«جاليلو» و«نيوتن»، وهؤلاء كان لهم الفضل في إبداع العلم بالقارة الأوروبية¹¹، وكانت نظرياتهم ومناهجهم خاصة في الفلك والفيزياء، قد بدأت في إحداث قطيعة مع التخيلات والتصورات الميتافيزيقية، وهو ما نفهم من خلاله تحركات الكنيسة في روما، ضد كامبنيلا وأفكاره، باعتبار الفلسفة العلمية، كانت تخالف في كثير من أفكارها مبادئ الكنيسة والتعاليم المسيحية.

ويعد كامبنيلا من أشد المعارضين لفلسفة أرسطو، هذا الذي عاش خلال القرن الرابع قبل الميلاد، وهو يعد من بين أشهر الفلاسفة تأثيراً في الفكر الأوروبي إلى حدود عصر النهضة، حيث لاقت حينها فلسفته اعتراضات كبرى من طرف أصحاب المنهج العلمي والتجريبي. ابتداء من برناردينو ديليسيو، ثم توماسو كامبنيلا. فشككت اعتراضاته بداية تمرد على الإرث الفلسفي اليوناني، الذي سطر ملامح الفكرانية الأوروبية لقرون. وهذا ما ساعد في التطور الكبير الذي عرفته أوروبا ابتداءً من عصر النهضة. فأسهم أخيراً بنقلة نوعية في الفلسفة الغربية، لم تقض بشكل كلي على الإرث اليوناني، لكنها تجاوزت الكثير من فلسفاته المتعارضة مع الاكتشافات العلمية الحديثة، ولعل الفضل في ذلك يرجع أساساً إلى الشجاعة التي تحلى بها كل من ديليسيو وتوماسو كامبنيلا من بعده، من خلال انتقادهما الشديد لفلسفة أرسطو، وغيرها من الفلسفات الميتافيزيقية.

وتقوم أساساً انتقادات كامبنيلا لأرسطو، على مجموعة من الأفكار الفلسفية، ومن بينها فلسفة أرسطو الطبيعية، حيث أنّ رؤية أرسطو كانت تعتمد بصفة كبيرة الميتافيزيقيا مدخلاً لدراساتها، إلا أنّ كامبنيلا جدد تلك المنهجية عبر دراسة مبادئ الطبيعة وفحصها، من خلال مبادئها الداخلية ونظامها البنوي والتكويني، من دون البحث في النظر إلى مبحث الميتافيزيقيا مدخلاً إليها، وهو ما يمكن اعتباره إضفاء العلمية والمناهج النظرية الحديثة خاصة المنهج التجريبي على دراسة الطبيعة وفحصها. وهو المنهج نفسه الذي انتقد من خلاله أرسطو أيضاً في دراسته للكون والكواكب والنجوم، حيث أنّ أرسطو يعتمد على منهج التفكير أو التخمين Speculation، وهو ما أدى به أخيراً إلى اعتماد مبدأ استقامة النجوم، وهو ما يعني ثباتها. إلا أنّ كامبنيلا، عارضه في ذلك معتبراً أنّ الكواكب تخضع للحركة، وأنّ أعمال الحواس خاصة المراقبة عبر التيلسكوب، سيؤدي إلى اكتشاف هذه الحقيقة¹².

لذلك سرعان ما لفتت أفكار كامبنيلا الفلسفية أنظار السلطات الدينية. وكانت إيطاليا في أواخر القرن الخامس عشر قد تخلت عن التسامح مع الأفكار الجديدة الذي طبع المرحلة المبكرة لعصر النهضة. فقد سلب الإصلاح الديني الكنيسة الكاثوليكية سلطتها على جزء كبير من أوروبا الغربية، وأعلنت حالة من الحصار

11 برتراند رسل، تاريخ الفلسفة الغربية: الكتاب الثالث الفلسفة الحديثة، ترجمة الدكتور محمد فتحي الشنيطي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2011، ص 53

12 Campanella's 'City Of The Sun' By León Zeldis, An electronic copy, link: <http://pictoumasons.org/library/Zeldis,%20Leon%20~%20Campanella's%20City%20of%20the%20Sun%20%5Bpdf%5D.pdf> p: 2

في الدول التي بقيت تحت سيطرتها (أي سلطة الكنيسة). ووقعت إيطاليا في قبضة الإصلاح المضاد فلم يفلت أحد، من البابا إلى أصغر راهب مجهول، من مراقبة محاكم التفتيش¹³.

واستدعي كامبنيلا في عام 1590 للمثول أمام محكمة دومينيكية لاستجوابه عن كتاباته التي دافع فيها عن ديليسيو. وبعد ثلاث سنوات وبينما كان مقيماً في الدير الدومينيكاني في بولونيا، - سرق البوليس السري (محاكم التفتيش الكنسية) للبابا كل مخطوطاته. وفي سنة 1594 اتهم بالإلحاد بسبب أفكاره المتعلقة بحيوية الكون، وقدم لمحكمة التفتيش في روما التي عجزت عن إثبات التهمة، ولكنها أمرته بالبقاء في روما تحت المراقبة. ورجع في عام 1597 إلى نابولي، حيث اصطدم مرة أخرى بالسلطات الدينية، وأجبر على الاعتكاف في «دير ستيلو»¹⁴.

لعل ما خفف محنته في حصار الكنيسة له ولأفكاره، هو مثاليته الكبيرة التي كان يعيش تحت ظل أفكارها، حيث أن أفقه الخيالي كان واسعاً، فاعتقد بنظرية كان لها صدى واسع في أوروبا، وهي قائمة على أن العالم سيعيش في نهاية القرن السابع عشر، «أزمة آلاف السنين»، حيث أن ثورة ستخلق تغييراً جوهرياً في الكنيسة والمجتمع، وتوقع كامبنيلا أنها ستحدث تقدماً مذهباً في الفلسفة والعلوم والسياسة¹⁵. وكانت في حينها تجري معركة حامية الوطيس من قبل دعاة الإصلاح، ولعل ذلك ما زاد في قناعته بأن التغيير قريب وسيحدث تغييراً عميقاً، ويصلح كافة المجالات.

نظرية «أزمة آلاف السنين»، شجعت كثيراً لتبني أفكار إصلاحية، ورغبته في التغيير، فاعتقد بأن إسبانيا ستكون هي محور العالم ومنها ستنتقل ثورته التي سيكون قائداً لها، وهي التي ستحقق الخير للمجتمعات. فصار مبشراً لأفكاره بين الرهبان بالكنيسة، إلى أن افترض أمره سنة 1599، فتعرض ساعته لأنواع من التعذيب، حيث أجلس لمدة أربعين ساعة على كرسي مغطى كلياً بالمسامير الحادة، مما سبب له آلاماً مضاعفة رافقته طيلة حياته¹⁶.

وقد حكم عليه بالمؤبد، بتهمة الهرطقة والتآمر على حاكم إسبانيا. على الرغم من ادعائه الجنون في محبسه وأمام القضاء. وأطلق سراحه في سنة 1626م من خلال البابا أوربان الثامن، الذي تدخل شخصياً نيابة عنه مع فيليب الرابع ملك إسبانيا، وأخذ إلى روما، ولم يستعد حريته الكاملة إلى سنة 1629م، وعاش لمدة خمس سنوات في روما، حيث شغل فيها منصب المستشار العمراني في المسائل الفلكية. وحينها تخلص عن فكرته كون إسبانيا هي محور العالم، خاصة مع استمراره في أفكاره الرامية إلى التغيير وتوحيد العالم،

13 ماريا لويزا برنيري، مرجع سابق، ص 120 – 121

14 المرجع السابق نفسه، ص 121

15 CAMPANELLA THOMAS, Op Cit, p: 7

16 MICHAEL BULEIGH, EARTHLY POWERS The Clash of Religion and Politics in Europe, from the French Revolution to the Great War, Harper Collins e-books. P: 17-18

فزادت الضغوطات من حوله، ليقرر أخيراً تغيير وجهته نحو فرنسا، حيث انتقل للعيش فيها سنة 1634، وحظي بحماية الملك الفرنسي لويس الثالث عشر¹⁷. فعاش في أحد أديرة فرنسا إلى أن توفي في 21 مايو من سنة 1639.

المحور الثاني: مفهوم المدينة الفاضلة عند توماسو كامبانيلا

كان للفلسفات التي عاصرها كامبانيلا، فضلاً عن الفلسفات القديمة، دور محوري في بلورة اختياراته الفكرية والمذهبية، والتي أنتجت مثقفاً، لم يكتف بعملية التنظير الفكري والفلسفي، بل حاول أن يجد لأفكاره موضعاً في الواقع، وبذلك عمد هذا الفيلسوف بمعونة من حاول إقناعهم بفكرته، على إيجاد مدينة الشمس وحكمها. ولم يكن السجن والتعذيب التي تعرض له بسبب ذلك فرصة للتخلي عن طموحاته، بل على العكس من ذلك فقد حول أفكاره إلى كتاب متداول بين الناس بلغة بسيطة حية، طمعاً في بث روح التغيير خارج أسوار السجن بين فئات المجتمع.

وعلى الرغم من أن كامبانيلا كتب في العديد من الميادين الفلسفية، إلا أن أكثر أعماله شهرة، هو «مدينة الشمس»، حيث يصف من خلاله - عن طريق حوار شيق بين البحار والفارس - الحياة في هذه المدينة، والتي تخضع لقوانين وأنساق ليس لها نظير على الكرة الأرضية، وهي بالتالي تحقق التصور الذي يتخيله كامبانيلا لمدينته الفاضلة. والمجتمع المثالي الذي يستحق أن يحمل راية توحيد العالم¹⁸.

1. ظروف كتابة «مدينة الشمس»:

إن الحديث عن ظروف كتابة «مدينة الشمس»، يرجع بنا بالأساس إلى الحلم الذي استولى على فكر كامبانيلا في أغلب مراحل حياته، ولو أننا أشرنا له سابقاً بشكل عرضي، إلا أننا في حاجة إلى مزيد من التفاصيل المساعدة على الفهم، فقد تأثر كامبانيلا بشائعات سادت في محيطه المجتمعي ساعتها، حيث تفضي هذه الشائعات بأن نهاية القرن السابع عشر، ستجلب معها تغييرات حاسمة وربما يأتي العالم إلى نهايته. وقد بزغ في ذهنه حلم غريب ومفعم بالقوة والإيمان، بأن التغييرات القادمة ستقود إلى إصلاح شامل للمجتمع. وأن هذه اللحظة ستأتي بجمهورية عالمية، ستكون كالابريا Calabria - موطنه ومسقط رأسه - نقطة انطلاق هذا التغيير. ويبدو أنه تمادى في أحلامه لاعتقاده بأن هذا التغيير سيكون تحت قيادته، فسار يهاجم

17 SHERRY ROUSH, *Selected Philosophical Poems of Tommaso Campanella: A Bilingual Edition*, The University of Chicago Press|Chicago and London, Printed in the United States of America 2011, p: 7-10

18 TESSA MORRISON, *The Architecture of Andreae's Christianopolis and Campanella's City of the Sun*, in *Proceedings of the Society of Architectural Historians*, Australia and New Zealand: 30, Open, edited by Alexandra Brown and Andrew Leach (Gold Coast, Qld: SAHANZ, 2013), vol. 1, p 261

الأفكار القديمة داعياً إلى تحديث الكنيسة¹⁹. هذه الظروف جعلته يعمل على كسب التأييد في وسط رجال الدين والمجتمع، وذلك من خلال إقناعهم بفكرته الإصلاحية وحلم إقامة مدينته الفاضلة، وهو ما جعل العديد يلتفت حوله وحول مشروعه، حيث بدأ ينشد الإصلاح على ثلاثة مستويات²⁰:

المستوى الأول: اجتماعي، عن طريق تحسين الظروف المعيشية للشعب، من خلال نظام اجتماعي طوبوي يرقى بالفرد داخل المجتمع.

المستوى الثاني: سياسي، عن طريق جعل حكام إسبانيا قادة العالم، من خلال جعل كالابريا، نقطة انطلاق من أجل توحيد العالم.

المستوى الثالث: ديني، وذلك من خلال تحديث الكنيسة وإصلاحها، عن طريق تطهيرها من المذاهب المدرسية القديمة، وجعلها تتبنى أفكاراً فلسفية حديثة.

وانطلاقاً مما سبق، يتضح أنّ كامبنيلا كان يحضر نفسه للقيام بإصلاحات شاملة، تقعد لأفكاره كما تعطي متسعاً واقعيّاً لخياله الواسع حول التغيير. إلا أنّ كشف خطئه من قبل الكنيسة، أبطل حلمه لتحقيق مدينته الفاضلة في الواقع، خاصة بعد الحكم عليه بالمؤبد. إلا أنّ كامبنيلا لم يتراجع عن أفكاره وحلمه بالتغيير، وهو ما قاده لتكملة كتابه «مدينة الشمس» باللغة الإيطالية داخل أسوار السجن ابتداء من سنة 1602 ولم تنتشر إلا سنة 1623.

كما يعتقد بصفة عامة أنّ هذا الكتاب قد وضع باللاتينية في تاريخ لاحق، وعلى الرغم من تجاهل الظروف التي تم فيها تأليف الكتاب للمرة الأولى، فقد وصف بأنّه حلم غريب وشاذ، وبأنّه منقسم انفصاماً كاملاً عن الواقع. والحقيقة أنّ مدينة الشمس مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بمحاولة كامبنيلا الفاشلة لإقامة جمهورية كالابريا. ولم ينجح التعذيب ولا المحاكمات في إحباطه، وربما قد يكون كتبها في نوع من التحدي، أو ليشرح ببساطة ماذا كان يمكن أن يحدث لو قدر له النجاح في محاولته. ومن المحتمل أيضاً أنّه كان يأمل في الهرب من السجن، وأنّه سعى بهذه الطريقة لكسب التأييد والمساندة، وقد اعترف شخصياً أنّه كان يحاول استمالة الحراس وإقناعهم²¹. ولعل ذلك لم يكن من أجل الهرب فقط، وإنما من أجل مواصلة خطئه في التغيير، وهو ما ظهر بشكل واضح من خلال مسلكياته الحركية، على الرغم من المداهنة التي كان يظهرها للكنيسة وملك فرنسا لاحقاً.

19 عطيات أبو السعود، مرجع سابق ص 387

20 المرجع السابق نفسه، ص 387

21 ماريا لويزا برنيري، مرجع سابق، ص 123

كما قيل مراراً إنّ كامبنيلا لم يهتم أدنى اهتمام بإضفاء طابع واقعي على مدينته المثالية. والحقيقة أنّنا لا نعرف منها شيئاً عن المكان الذي تقع فيه، ولا كيف وصل إليها الملاح الذي يروي القصة. وهذا أمر يمكن فهمه إن وضعنا في اعتبارنا أنّه كان يعظ ويحرض ويدبر المؤامرات ويواجه التعذيب لكي يقيم جمهورية مثالية في مسقط رأسه كالابريا. ولم يشأ أن ينظر قراءه إلى كتابه وكأنّه رواية خيالية، أو أن يتخللوا المدينة المثالية في بلد بعيد أو في بلد أجنبي، وإنّما أراد أن يتصوروها حولهم وأن يعتبروا أنفسهم مواطنيها. ولم يكن كامبانيلا يفتقر إلى الخيال والمواهب الشعرية التي في قصائده الغنائية وأشعاره التي كتبها طوال حياته، ومع ذلك فإنّ «مدينة الشمس» عمل جاف ومجذب، وهي أشبه بمنشور أو برنامج عمل سياسي، لأنّ هذا في الواقع هو المقصود من كتابتها²².

2. تلخيص لكتاب «مدينة الشمس»:

صاغ كامبنيلا كتابه على شكل حوار ثنائي، بين الفارس الكبير هوسبيتالر وقبطان سفينة من جنوا، حيث يبدأ الفارس الحديث بسؤال يوجهه إلى البحار يقول فيه: «من فضلك، حدثني عن كل خصوصيات هذه الرحلة؟»، وقبل الشروع في الإجابة، يحاول البحار إضفاء نوع من التشويق، حيث يحدثه عن رسو سفينته الاضطرابي جنوب الإكوادور، ومحاولته الهرب والاختباء بين الأشجار، وكيف وجده مجموعة من الرجال والنساء المسلحات، فاقتادوه إلى «مدينة الشمس»، وهي المدينة التي سيبدأ بسرد تفاصيل الحياة عليها²³.

وتتميز الحياة على المدينة الخيالية لكامبنيلا بالحب والسعادة والوئام والتكافل، حيث كلّ شيء بداخلها يسير بطريقة مثالية، وحيث تختفي أيضاً النزعات الأنانية أو حبّ التملك، بل الجميع متوافق على نبذ مصلحته الخاصة في سبيل المصلحة العامة. ويسمح بالموسيقى فقط للنساء وفي بعض الأحيان للأطفال، ومن مظاهر الحياة أيضاً على «مدينة الشمس»، هو أنّ الشباب ملزمون بخدمة من تجاوزت أعمارهم الأربعين سنة، ضمن الأعمال التي يقومون بها في الورش وأماكن العمل، كما يحضر إحداث أي ضوضاء في الأوقات المخصصة لوجبات الطعام²⁴.

وتؤكد قراءة عمل كامبنيلا، خاصة شكل النظام داخلها، وتصميم المدينة، اعتماده على النظام التراتبي للكون والموجودات، حيث أنّ هذا النظام ساد في العصور الوسطى، وكان العلم الأساسي فيها هو علم التنجيم، فالشمس حسب اعتقاده الفلسفي هي «الله»، والكواكب السيارة التي هي بمثابة قادة الحياة الاجتماعية، بل

22 المرجع السابق نفسه، ص 124

23 TOMMASO CAMPANELLA, Op Cit p: 2

24 GEORGE ORWELL, *The City of Sun*: Panopticon, Synopticon and Omnipticon – Big Brother and the Giant with Thousand Eyes, LOWPOWER SOCIETY, emanuel dimas de melo pimento, p: 262

إن الدولة الشمس تقيم موظفين يحددون، حسب وضعية النجوم، الحياة الشخصية للأفراد حيث أن الحرية الفردية لا مكان لها في المدينة²⁵.

ولعل القصد من خلال هذا النظام، هو تأكيده على محورية الشمس، وكونها مركز العالم، وهذا كما سبقت الإشارة إليه لم يكن جديداً مع كامبنيلا، بقدر ما اخترعت حوله عدة نظريات، خاصة مع الفيلسوف الفرنسي جين بودين (Jean Bodin) (I596-I530)²⁶، وانطلاقاً من هذه النظرية، فإن حاكم المدينة مرتبط ارتباطاً قوياً بالشمس، وهذا ما يمكنه من الإدراك الواسع لمختلف العلوم، بل هو سيد المعارف كلها، بما في ذلك المهارات التقنية، فموهبتة الفريدة، هي ما تجعله الأقدر على الحكم بين كل ساكنة المدينة²⁷.

وبالعودة إلى ما يرويه القبطان عن المدينة وما شاهده بداخلها، يبدو أن الوصف هو لأرض لا تشبه أرضاً غيرها على سطح الأرض، حيث أن شكلها الهندسي ونظام الحلقات بداخلها يعد فريداً ولا يتطابق معه أي نظام آخر. فهي تنقسم إلى سبع حلقات أو دوائر ضخمة، وتحمل أسماء الكواكب السبعة، والتنقل من دائرة إلى أخرى يكون عن طريق أربعة شوارع وعبر أربع بوابات، إضافةً إلى أن الجدران الخارجية سميكة جداً ومحصنة بشكل جيد، من خلال المتاريس وأبراج المدافع والخنادق، وسيكون من المستحيل اقتحامها أو الاستيلاء عليها. وإذا تم اقتحام الدائرة الأولى فيجب اقتحام الثانية إلى السابعة، وبالتالي فهو تصميم يحمي المدينة من أي تهديد خارجي²⁸.

ويوجد على قمة التل سهل واسع نوعاً ما، وفي وسطه يرتفع معبد بني على طراز فني عجيب، وهو غير منسلخ عن المدينة، بل يمثل فكرها وروحها، فضلاً عن أن سكان المعبد هم من الكهنة والضباط المتدينين. والواقع أن الكهنة في «مدينة الشمس» يمثلون مختلف الفضائل الإنسانية والأخلاقية والفكرية، وهم يتصفون بذلك باعتبارهم أساساً وسطاء بين المواطنين العاديين والنظام الحاكم، فالوضع في المدينة هو على هذا النحو، وهو يعبر عن حالة عبور من خلال جدران المعبد المادية إلى الفكر النقي في المركز، وهذا هو النظام الذي يشكل الحياة داخل «مدينة الشمس» بجميع مجالاتها²⁹. وتبدو جليةً المكانة الرفيعة التي أعطتها كامبنيلا للكهنة ورجال الدين في مدينته الفاضلة، وهو بذلك يبرز دورهم المحوري في صقل القيم والأخلاق والفضيلة للساكنة، فدورهم لا يمثل فقط الوساطة الروحية، بل يتعداها إلى وساطة سياسية واجتماعية، تعمل على نقل تلك القيم إلى الساكنة والحرص على تتبع معاني الفضيلة.

25 عطيات أبو السعود، مرجع سابق، ص 376

26 EDWARD ROSEN, *Galileo's Misstatements about Copernicus*, Published by: The University of Chicago Press on behalf of The History of Science Society Stable, Isis, Vol. 49, No. 3 (Sep., 1958), p: 325

27 PHYLLIS A. HALL, Op Cit, p: 618

28 TIMOTHY J. REISS, *Structure and Mind in Two Seventeenth-Century Utopias: Campanella and Bacon*, Yale French Studies, No. 49, Science, Language, and the Perspective Mind: Studies in Literature and Thought from Campanella to Bayle (1973), Published by: Yale University Press, p: 86

29 Ibid, p: 86 -87

ويمكن القول، بأن طريقة التصميم الذي أبدعه كامبنيلا في «مدينة الشمس»، تظهر مدى عمق المدينة العلمي والمعرفي، وكيف أنها تشغل حيزاً واسعاً للعلوم بمختلف أصنافها، في حين تخصص مجاًلاً ضيقاً للحرب والحب، وهو ما يمكننا من الفهم، على أن المدينة هي انعكاس لفكر هذا الفيلسوف، وأفكاره الإصلاحية، فعلى الرغم من التقييد والصرامة التي عليها المدينة، إلا أنها تعكس أيضاً جانباً مشرقاً، من خلال اعتمادها على العلم بصفة كبيرة، وبشكل فني متجانس، يعطي قيمة لمجهودات الساكنة، ويرفع من قيمة المبدعين داخلها.

المحور الثالث: أسس «مدينة الشمس» لكامبنيلا

في هذا المحور، سنعمل على الغوص أكثر في طبيعة الحياة على أرض «مدينة الشمس»، وذلك من خلال التعرف على الأسس التي بنيت عليها، سواء من الناحية السياسية أو الاقتصادية، فضلاً عن نظمها الاجتماعية الفريدة، والتي تظهر تصور كامبنيلا للحياة المثالية على مدينته الفاضلة. وعلى الرغم من أن كل شيء داخل المدينة يبدو مثاليًا، إلا أن القوانين بداخلها جد صارمة ومفروضة الاتباع على جميع المواطنين، ناهيك عن اختيار الحاكم وغيرها من الأمور التي تظهر طابعها الصارم في الحياة.

ولعل لذلك تفسيره، خاصة عند الرجوع لليوتوبيات السابقة، فأغلبها اعتمد على نظام واحد تخضع له ساكنة المدينة/الدولة الفاضلة. سواء تعلق الأمر بجمهورية أفلاطون أو يوتوبيا توماس مور. فكان من الطبيعي أن يتجه كامبنيلا على المسار نفسه، خاصة أن فكرة مدينته الفاضلة، كانت نتاج تأثره بأعمالهم، وساهمت من ثم بأن تكون من أعظم اليوتوبيات بعد مور³⁰. وإن كان قد حررها من الأدب الإنساني الكلاسيكي، وأضفى عليها لوناً جديداً يتمتع بالبساطة، للغايات نفسها التي أشرنا إليها في المبحث السابق.

إلا أن ما ميز يوتوبيا كامبنيلا، هو تفرداها عن اليوتوبيات السابقة باعتمادها على العلوم والتقنية بشكل دال، حيث أن هذه الأخيرة لها مكانة كبيرة داخل «مدينة الشمس»، وهي من تسهم في تطورها، وتحقيقها للازدهار الداخلي. بل هي مرتبطة بكل الأسس والنظم داخل المدينة، سواء السياسية أو الاجتماعية أو الاقتصادية. ولهذا الاتجاه عند كامبنيلا ما يفسره، خاصة عند دراستنا لحياته وإنتاجاته الفكرية المتنوعة، والتي تظهر تقديره لمختلف العلوم الأدبية والطبيعية والتقنية، وإلمامه بكثير منها. بل أيضاً دعواته داخل الكنيسة والمجتمع، باعتماد النظريات الفلسفية الحديثة، وإعطاء العلم مكانته السوية داخل النظم السياسية في عصره.

30 ERIC NELSON, UTOPIA THROUGH ITALIAN EYES: THOMAS MORE AND THE CRITICS OF CIVIC HUMANISM, Published by Renaissance Society of America, Renaissance Quarterly, Volume 59, Number 4, Winter 2006, p: 1052

1. الأساس السياسي (نظام الحكم):

على خلاف توماس مور، الذي ركز على آلية انتخابية ديمقراطية في اختيار الحكام، فإن كامبنيلا أعطى لونا آخر لنظامه السياسي، فمنصب حاكم «مدينة الشمس»، هو منصب خاص والطريق للحصول عليه ضيقة جدًا. وهي تشترط المعرفة المطلقة بكل المعارف والعلوم. بل كل المناصب العليا داخل المدينة، تشترط الحصول على أكبر قدر من المعرفة والمهارات التقنية بالدرجة الأولى، وهذه الأخيرة هي من تمنح صفة النبيل، على الرغم من أن كل الأنشطة اليدوية تعتبر عملاً نبيلًا، والكل يتشارك في العمل في الحقول والمراعي والمصانع، وعلى الجميع أن يكون له دراية بهذه الأعمال، لكن الإمام بقدر كبير من المعارف، هو من يعطي للرجل مكانة النبيل داخل «مدينة الشمس»³¹.

وبالتالي فإن حاكم المدينة، يجب أن يكون لديه اطلاع واسع على التاريخ، وعلى معرفة واسعة بكل الثقافات والعادات التي تخص الشعوب والمجتمعات، كما يجب أن يكون ملماً بكافة الاختراعات وأصحابها، فضلاً عن معرفته بكل ما يحدث في السماء والأرض، والعلوم التقنية والتجريبية وعلم التنجيم، وعلم اللاهوت، ومختلف أنواع الفنون، كما يجب أن يكون على معرفة بكل اللغات، فلا يوجد بداخل المدينة مترجمون. ويشترط أن يكون السن خمس وثلاثون سنة فما فوق. وبالتالي يصعب التنافس على هذا المنصب، إلا من وجد أكثر علمًا ومعرفة من «الميتافيزيقي»، فإنه يتنازل عن منصبه لصالح الأعم منه³².

ويسمى حاكم «مدينة الشمس»، «ميتافيزيقيوس» أي الإمبراطور الروحي، أو السلطة البابوية، ويساعده في الحكم ثلاثة حكام يمثلون القوة والسلطة، والمعرفة/الحكمة، والإرادة/المحبة: «إن الحاكم الكبير كاهن يدعونه باسم «هو» وإن كان علينا أن نسميه «الميتافيزيقيوس» Metaphysic وهو على رأس الجميع، ويمسك بزمام الأمور الروحية والزمنية ويشرف على كل الأعمال ويضع كل القوانين باعتباره السلطة العليا، ويساعده ثلاثة أمراء يتمتعون بسلطات متساوية وهم بون وسين ومور، ومعناها القوة والحكمة والمحبة. وهذا تأكيد على قوة الدولة وأهميتها في «مدينة الشمس»، التي أصبحت هي الهدف والغاية الأسمى، للمجتمع الذي تتصاعد السلطة فيه من البيت إلى الكومونة، فالمدينة فالإقليم، فالإمبراطور، حتى تصل إلى المونارشية الكونية. وينتشر هذا النظام على شكل دوائر ذات مركز عالمي واحد شامل، وعلى رأس هذه الكتدرائية السياسية الصارمة تقف المملكة البابوية العالمية³³.

إن شكل النظام الذي تتمتع به «مدينة الشمس»، يعتمد بصفة شبه كلية على العلوم والمعارف، فهي من تعطي قوة للمدينة، حيث تعتمد بصفة كلية على ما اخترعه وينتجه ساكنتها، فحتى الشروط التي يجب

31 PHYLLIS A. HALL, Op Cit, p: 316

32 TOMMASO CAMPANELLA, Op Cit p: 9

33 عطيات أبو السعود، مرجع سابق، ص 377

أن تتوفر في الحاكم «الميتافيزيقي»، تكاد تكون مستحيلة. إلا أن الرجوع لنظرية «النظام التراتبي للكون والموجودات»، هو ما يمكننا من فهم طبيعة الحياة على يوتوبيا كامبنيلا، على اعتبار محورية الشمس ومركزيتها المتمثلة في الحاكم، فالشمس هي الحاكم والحاكم هو الشمس. فتسيير المدينة في مختلف أبعادها المادية والروحية يكون من خلاله، ولا يمكن أن يكون ذلك إلا عن طريق شخص يملك قدرات خارقة لا يتشاركه معها أحد آخر، بمعنى أدق، أن يكون في منصب «الألوهية»، حيث يكون على دراية بكل صغيرة وكبيرة من مختلف المعارف سواء التقنية أو الثقافية أو المجتمعية أو العلمية، وذلك ما يؤهله أن يحكم دولة مثالية بطريقة مثالية، عبر أمرائه الثلاثة (القوة والمعرفة والحب)، وهي نفسها حسب كامبنيلا الركائز الأساسية التي تحافظ على توازن العالم.³⁴

2. الأساس السوسيو-اقتصادي:

يرتبط البناء الاجتماعي داخل «مدينة الشمس» بالبنية الاقتصادية والتعليمية، حيث أن عملية التنشئة الاجتماعية للأطفال تقوم على أساس تملك المهارات التقنية والمعرفية، المساهمة في عملية الإنتاج. إذ يتعلم كل فرد من الصغر كل أنواع الفنون، وبعد بلوغ الثالثة من العمر يتعلم الأطفال اللغة وحروف الأبجدية بالمشي حول الحوائط في أربعة صفوف، يقودهم أربعة من كبار السن الذين يتولون تدريبهم. ويعودون حتى سن السابعة حفاة الأقدام وبشعور غير مشطية، ويؤخذون في جولات حول الورش الخاصة بالحرف المختلفة – كالخياطين والنقاشين والصائغين .. إلخ، لكي يكتشفوا ميولهم واستعداداتهم. وبعد سن السابعة يتلقى الأطفال دروساً في العلوم الطبيعية، وعندما يصبحون أكبر سنًا يدرسون الرياضيات والطب وغيرها من العلوم، وهم يتناقشون بصفة مستمرة ويتنافسون فيما بينهم، وقد يصبحون قضاة متخصصين في أحد العلوم أو الفنون الآلية التي برعوا فيها. كما يذهب الأطفال أيضًا إلى الريف ليتدربوا على العمل في الحقول والمراعي، وكل من درس منهم معظم الفنون ومارسها بإتقان يعتبر على درجة عالية من النبيل.³⁵

وفي ما يتعلق بالتنظيم الاجتماعي، لم تختلف كثيرًا يوتوبيا كامبنيلا عن يوتوبيا مور، حيث اللباس الموحد بين جميع الساكنة، على اعتبار النظام في «مدينة الشمس» هو شيوعي مطلق، فالجميع يعيش على قدم المساواة، ولا توجد ملكية خاصة، وكل فرد ينال حقه بالتساوي وما يكفيه لتحقيق سعادته. وقد أيقن كامبنيلا أن الفقر هو ما يجلب الكذابين واللصوص، ووجود طبقات غنية وأخرى فقيرة يزيد من تكريس هذا الوضع ولا يحقق المثالية داخل المجتمع، وبالتالي فهو يرى، أن إزاحة الملكية الخاصة، وتساوي الجميع

34 RUTH HAGENGRUBER , ON SCARCITY AND ABUNDANCE. THREE TYPES OF SOCIAL RE - SONING IN MORE'S, CAMPANELLAS AND BACON'S UTOPIAN DRAFTS. In: Ramiro Aviles, Miguel: UTOPIA. La Busqueda de la Sociedad ideal. Madrid 2010, p: 9-10

35 ماريا لويزا برنيري، مرجع سابق، ص 132

في المأكل والمشرب والملبس، وفرض العمل على الجميع، هو ما سيحارب الكسل والخمول المؤدي إلى الخراب³⁶.

و يعيش الأفراد في «مدينة الشمس» حياة طويلة تستمر لـ 200 سنة، وهو ما تستفيد منه المدينة عبر استغلالها لمواردها البشرية، في عملية الإنتاج من خلال المصانع والحقول ومجال العلوم والمعرفة. وللمرأة مكانة متساوية مع الرجل، فهي تشارك في الأعمال التي يقوم بها الرجال، وإن كانت تكلف بمهام أخف. وتتدرب النساء أيضًا على حمل السلاح تحت إشراف أساتذتهن من المعلمين والمعلمات، وذلك لكي يتمكن «في حالة الضرورة» من مساعدة الرجال في المعارك الدائرة بالقرب من المدينة³⁷.

إنّ قراءتنا لعمل كامبنيلا، يظهر مدى اهتمامه بأدق التفاصيل داخل المدينة، بما فيها العلاقات بين النساء والرجال، حيث يضع لذلك نظامًا غريبًا، معتبرا أنه (أي النظام العلائقي بين الرجال والنساء) وسيلة ناجعة من أجل تحسين النسل، فهو يستغرب كيف أنّ باقي المجتمعات تهتم لتحسين نسل الحيوانات، دون أن يعمل بذلك للجنس البشري أيضًا، فهو حسب اعتقاده أولى بأن يخضع لهذه العملية، حتى تتحسن السلالات البشرية. ومن ثمّ فهو يخلق داخل يوتوبياه توازنًا بين النساء والرجال الذين يتم اختيارهم لعمليات التوالد وذلك من خلال نظام غذائي جيد، وانطلاقًا أيضًا من حسابات فلكية معقدة³⁸.

ومن خلال ما سبق، يتضح جليًا أنّ بنية المجتمع مرتبطة بشكل وثيق بالبنية الاقتصادية والمعرفية، حيث يكون الحرص على تملك المهارات التقنية والحرفية والصناعية والعلمية منذ السنوات الأولى لعمر الأطفال، حتى يتشارك الجميع في مختلف الأعمال داخل المدينة، فاستغلال الطاقة البشرية وتنميتها، يساهم في مضاعفة اليد العاملة ومن ثمّ الإنتاج الفلاحي والصناعي، الذي يغني ساكنة المدينة من الاستيراد.

3. الأساس العلمي/التقني:

عكست «مدينة الشمس»، الإعلاء من شأن العقل الذي ساد في القرن السابع عشر، والأخذ بمبادئ العلم الجديد والإيمان باللامحدود بضرورة التقدم المادي لأنّه من أهم الشروط التي تحقق السعادة المدنية. كانت هذه الخاصية لمدينة الشمس هي المنظور الوحيد للأمل في يوتوبيا كامبنيلا التي انتقلت فيها الحرية، وخيم عليها سكون التأمل. فقد تميزت بالاختراعات العلمية التي وجهت بصرها ناحية المستقبل وتجاوزت اختراعات أهل المدينة ما وصل إليه العلم الأوروبي في ذلك الحين، ولا بد أن يكون ازدهار البرجوازية الأوروبية في

36 RUTH HAGENGRUBER, Op Cit, p: 8

37 ماريا لويزا برنيري، مرجع سابق، ص 135

38 MICHAEL BULEIGH, Op Cit, p: 21

القرن السابع عشر قد أثر في تطور الإنتاج اليدوي إلى الإنتاج الصناعي وما صاحب ذلك من تطور علمي وتقني³⁹.

ومن الأمثلة على التطور العلمي في «مدينة الشمس»، هو استخدامها لطاقة الرياح في تسيير عربات داخل المدينة، وتكمن ميزة هذه العربات في كونها قادرة على السير بالاتجاه الذي ترغب فيه حتى لو كانت الريح تضرب في الاتجاه المعاكس، وذلك بفضل اختراع فريد من نوعه حيث توجد عجلات بداخل عجلات تعطي الطاقة للعجلات الداخلية، مما يمكنها من الدوران، فضلاً عن اختراعات حربية وعسكرية تتعلق بإنتاج حرائق نارية اصطناعية تستخدم في الحروب البرية والبحرية، وغيرها من الاختراعات سواء ما يتعلق بالطيران أو الأسمدة التي تحافظ على خصوبة الأرض .. إلخ، والتي تمكن العلم في عصرنا الحالي من التوصل إلى ابتكارها، وهو ما يبرز قوة خيال توماسو كامبنيلا العلمي⁴⁰.

ولعل هذا الأساس يتداخل بشكل كبير مع باقي الأنساق داخل «مدينة الشمس»، فهو الركيزة الأساسية التي تعتمد عليها المدينة في بنائها الداخلي، فالعلوم والتقنية لها مكانتها الدالة، وبها تشتغل كل النظم، وحتى النظام العام للمدينة مرتكز بالحاكم «الشمس» الملم بمختلف المعارف والعلوم والتقنية. وهو ما يؤكد أن كامبنيلا قد اعتمد على هذا الأساس على خلاف اليوتوبيات السابقة، باعتباره انعكاساً بارزاً لميولاته العلمية، وما عاشه في عصره من نقلة نوعية للنظريات العلمية.

4. الأساس المرجعي الإيديولوجي (الشيوعية وصرامة النظام):

تميزت يوتوبيا كامبنيلا بالنظام الصارم الذي يضع كل شيء في موضعه، يوتوبيا تعتمد على فكرة حكومة كاثوليكية وشيوعية عالمية، تخضع جميع الدول تحت رئاسة البابا. حيث تتميز «مدينة الشمس» بوصفها مدينة شيوعية تختفي فيها الملكية الخاصة، فليس هناك ربح ولا استغلال بل مساواة طبيعية. ووقت العمل مخفض إلى أربع ساعات، حيث يوزع العمل بين الجميع، وعلى كل فرد أن يعمل يومياً في التعليم والمسابقات والقراءة والكتابة وفي ممارسة تمارين العقل والبدن⁴¹. ومن ثم فنظامها الشيوعي ليس فحسب في المأكل والملبس والعمل، بل أيضاً في المجال العلمي والفكري والثقافي، إذ يتشارك الجميع ومنذ الصغر في التعلم واكتساب المهارات، فهي شيوعية قائمة على التقنية والعلم بالدرجة الأولى.

وتبريراً لاعتماد كامبنيلا على النظام الشيوعي في الحياة اليومية لأفراد مجتمع «مدينة الشمس»، صور تبريره بطريقة أدبية وفلسفية دالة، تبرز مدى نجاعة هذا النظام، في خلق التماسك الاجتماعي، والحفاظ عليه

39 عطيات أبو السعود، مرجع سابق، ص 378

40 PHYLLIS A. HALL, Op Cit, p: 322 – 323

41 عطيات أبو السعود، مرجع سابق، ص 377 - 378

من أي اختلالات داخلية، حيث عبر عن ذلك بقوله: «ويقول الناس في «مدينة الشمس»، إنَّ الفقر يخلف اللصوص والدهاء والكذابين المشردين، وإنَّ الثروة تخلف الغرور والجهل والطغاة. ولكن أفراد المجتمع الحق ينشؤون من الغنى والفقر معاً، فهم أغنياء لا يريدون شيئاً، فقراء لا يملكون شيئاً، ونتيجة ذلك أنَّهم ليسوا عبيداً للظروف وإنَّما الظروف هي التي تخدمهم»⁴².

إلا أنَّ المميز هنا، هو أنَّ الشيوعية في «مدينة الشمس» ليست بديلاً عن النظام، وليست غاية يصل فيها أفراد الشعب إلى مرحلة تختفي فيها الدولة، بل على العكس من ذلك، فالشيوعية هي جزء من النظام وليس النظام جزءاً من الشيوعية، أي أنَّ تدبير المدينة عن طريق نظامها التراتبي المشار إليه في المباحث السابقة، يعطي لكل عنصر داخل المدينة مكانته السوية داخل هذا النظام الصارم والدقيق، ومن ثمَّ فهو لا يسمح بالمصادفة أو التساهل، بل هو قائم على عقلانية تنظيمية، تجعل لكل بناء أو أساس معين وضعه، ولكل فرد حسب ما أتقنه وما تمليه عليه ميولاته مكانته بداخله. وتبقى الشيوعية إطاراً تنظيمياً ومبدئياً يحفظ للمجتمع توازنه وبناءه القيمي والأخلاقي.

ويرى كامبنيلا أنَّ الأسرة هي أكبر عقبة أمام خلق دولة شيوعية، حيث أنَّ الآباء والأمهات لا يحسنون تربية أبنائهم، لذلك فقد اعتبر أنَّ مهمة الآباء تكمن فقط في عملية الإنجاب، دون التدخل في عملية التربية والتنشئة، التي تبقى من صلاحيات الدولة، حيث تقوم بتعليم الأطفال وإكسابهم المهارات الضرورية، لتهيئتهم لاحقاً في الاندماج ضمن النظام المجتمعي العام في المدينة⁴³. وقد أخذ كامبنيلا بهذا الحل، حلاً وسطاً ضمن الحلول المعتمدة في تناول الأسرة ضمن الأعمال الطوبوية، وذلك بالإبقاء على المؤسسات الأسرية، على أساس أنَّ تعهد للدولة مهمة تعليم الأطفال. في حين اتجهت حلول أخرى لإلغاء مؤسسة الزواج والأسرة، وأخرى دعت إلى الحفاظ عليها كما الحال في يوتوبيا توماس مور⁴⁴.

42 المرجع السابق نفسه، ص 378

43 ARCHIE BROWN, *The Rise and Fall of Communism*, Harper Collins e-books. P: 15

44 ماريا لويزا برنيري، مرجع سابق، ص 21

خاتمة:

إنَّ التأمل في الأعمال الفلسفية لتوماسو كامبنيليا، تبرز مدى العمق المعرفي الدال الذي كان يتميز به، باعتباره واحداً من أبرز الأدباء والمفكرين الأوروبيين تأثيراً في عصر النهضة، حيث أنَّ تنويعه في مجال الكتابة، أظهر مدى قوة أعماله وتأثيرها في الأجيال اللاحقة لعصره، فكامبنيليا لم يكتف بمجال الفلسفة والأدب والفكر بل كتب وألف في مختلف العلوم. ويحسب إليه سبق أيضاً في إبداع عدة نظريات، سبق بها فلاسفة ومنظرين آخرين، ومنها على سبيل المثال، سبقه لفرانسيس بيكون في نظرية المنهج التجريبي، وديكارت في نظرية إدراك المعنى، ونظريات أخرى عديدة، سطرت مبادئ الفكر السياسي والفلسفي في أوروبا⁴⁵.

وقد برز ذلك جلياً من خلال القراءة التي قدمت في المحاور السابقة لعمله الطوبوي «مدينة الشمس»، حيث أنَّ تأثيره بالنهضة العلمية التي عاصرها، جعله يتمرد على عدد من المسلمات الميتافيزيقية، واضعاً النظريات العلمية بمختلف فروعها حلاً للإصلاح الديني والسياسي والاجتماعي. فعكست بذلك مدينته الفاضلة، نظرياته ونزعاته الفلسفية، التي كانت، بالإضافة إلى عدم توافقها مع منهج الكنيسة «المدرسي»، معارضةً لأفكار الفيلسوف أرسطو حول الطبيعة والميتافيزيقيا. وكانت أيضاً ذات رؤية مختلفة حول التقسيم الطبقي والنظام الاجتماعي الذي كان سائداً في أوروبا، وهو ما تجلّى من خلال تبنيه للنظام الشيوعي.

ولا يمكن الفصل بين «مدينة الشمس» ويوتوبيا توماس مور، فأوجه التوافق بينهما كثيرة، إذ اعتمد كلاهما على أسلوب الحوار في الكتابة، وإضفاء كثير من التشويق والغموض على تفاصيل الأحداث في مدينهم الفاضلة. على الرغم من أنَّ حياة كل واحد منهما كانت مختلفة، إلا أنَّ كليهما قد نهل من الأسلوب الأدبي والمخيال السياسي أنفسهما. ولعل هذا ما أسس له مور في البداية، باعتماده على الاسم «يوتوبيا»، والتي عني بها اللامكان، لتكون المدينة الفاضلة من ثم، جزءاً من مخيلة كاتبها، إلا أنَّها في الوقت نفسه تعكس أفكاره وفلسفته في الحياة.

ولعل من الأسباب المؤدية إلى ذلك، هو ظروف الخوف والملاحقة التي عاشها كامبنيليا، فألزمته على اعتماد كثير من الغموض في كتابه. وعلى الرغم من ظروف حياته الصعبة وسجنه الذي استمر 27 سنة، فروح التمرد بداخله جعلته يتحدى ظروفه، ويسعى لنشر عمله بين الناس بلغة بسيطة، لكن مع نوع من المداينة السياسية، خاصة للكنيسة الكاثوليكية، حيث أنَّ «مدينة الشمس»، عرفت أطواراً من الكتابة الزمنية، اختلفت معها فصولها، فأعطت في الأخير تلك المكانة المرموقة للكنيسة، على هضبة المدينة. لكن بصيغة لم تختلف عن ما كان يدافع عنه كامبنيليا طيلة حياته، خاصة في المجال العلمي والفلسفي.

45 SHERRY ROUSH, Op Cit, p: 1-2

إنّ أبرز السمات التي تميزت بها يوتوبيا كامبنيلا، هو مساهمتها في تطوير الأدب الطوبوي، حيث لم تكثف كما الحال بمؤسس الأدب اليوتوبي توماس مور بالاعتماد على الأدب الكلاسيكي من جهة، والانغماس في فلسفات العصر الوسيط المتأثرة بالفلسفات اليونانية من جهة ثانية، بل ساهمت في إدراج التطور والتحول العلمي الذي ساد في أوروبا بداية القرن السادس عشر والسابع عشر، من خلال إدخال التقنية على «الرواية اليوتوبية»، باعتبارها أداة للتقدم والازدهار، سواء على المستوى السياسي من خلال عملية الإدارة والحكم، أو على المستوى الاقتصادي من خلال الاستثمار في الطاقات البشرية، بتمكينها من المهارات التقنية. ولعل هذا الإسهام سيكون له إشعاع دال مع الأعمال الطوبوية اللاحقة، خاصة مع فرانسيس بيكون في عمله «أطلانتس الجديدة New Atlantis».

وبالإضافة إلى ما سبق، فقد ضمت «مدينة الشمس»، عدة مميزات وخصائص أضفت لونها أدبيًا وفلسفيًا جديدًا على عمل كامبنيلا، وساعدت في شهرة كتابه ونقل أفكاره، سواء ما تعلق بفلسفته ضد أرسطو واعتماده على المنهج التجريبي، أو تبنيه بعض الأفكار التي تطورت في ما بعد خلال القرن التاسع عشر وأنتجت ما أصبح يعرف بالمذهب الطبيعي Naturalism أو «الفيزيوقراطية»، وعلى الرغم من أنّ هذا المذهب بشكله الحالي يتعارض بشكل كبير مع أفكار كامبنيلا، إذ أنّ التطور الذي عرفه (أي المذهب الطبيعي)، جعله ينهل بشكل كبير من الفكر الرأسمالي والمذهب الليبرالي، إلا أنّ ما يتشارك فيه كامبنيلا معه هو فكرته الأساسية التي تعتبر الأرض هي مصدر الثروة، وقد عمل على التوفيق في ذلك بينها وبين العلم والمبادئ الأساسية، انطلاقًا من فلسفة ديليسيو العلمية في المذهب الطبيعي⁴⁶.

وفضلاً عن ذلك كله، فإنّ ما يشد الانتباه في «مدينة الشمس»، هو ارتكازها الكلي على العلم وتمكّن المعارف، سواء من خلال الحرص على أن ينال ساكنتها قدرًا دالاً من المعرفة، أو من خلال التنافسية على منصب الحاكم، حسب معيار الأكثرية في المعارف والعلوم، وهو ما يبرز مدى راهنية المعرفة ومركزيتها في فلسفة توماسو كامبنيلا، والتي كان دائماً ما يرى فيها مدخلاً أساسياً نحو السياسة والاجتماع والاقتصاد. وأساس قوة لأي سلطة أو دولة. هذا البناء الفلسفي يذكرنا لا شك بالقولة الشهيرة للفيلسوف الإنجليزي فرنسيس بيكون Francis Bacon، حين قال بأنّ «المعرفة قوة Knowledge is Power»، وحقيقة هذه الجملة، اكتشفت مع استمرار التطور العلمي الكبير، والثورة التكنولوجية الهائلة التي وصلت إليها البشرية، وما حققته الكثير من الدول من قوة لا تضاهي بفعل ارتكازها على العلم والمعرفة، وهو ما اعتبر تنبؤاً لهذا الفيلسوف لما سيكون عليه العالم بعد فترة يسيرة من الزمن.

46 Ibid, p: 4

لائحة المصادر والمراجع

باللغة العربية:

- أبو السعود عطيات، **الأمل واليوتوبيا في فلسفة إرنست بلوخ**، منشأة المعارف بالإسكندرية، الطبعة الأولى 1997
- ماريا لويزا برنيري، **المدينة الفاضلة عبر التاريخ**، ترجمة عطيات أبو السعود، عالم المعرفة العدد 225، ديسمبر 1997
- برتراند رسل، **تاريخ الفلسفة الغربية: الكتاب الثالث الفلسفة الحديثة**، ترجمة الدكتور محمد فتحي الشنيطي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2011

باللغة الأجنبية:

- PELTONIEMI TEUVO, **FINNISH UTOPIAN SETTLEMENTS IN NORTH AMERICA**, A paper presented at the Third FinnForum, September 5-8, 1984, Turku, Finland. Published in: Karni, Michael G. & Koivukangas, Olavi & Laine, Edward W. (eds.): *Finns in North America*. Institute of Migration C9. Turku 1988
- CAMPANELLA TOMMASO, **LA CITÉ DU SOLEIL ou L’Idée d’une république philosophique**, Préface Louise Colet, une anthologie de Francis Lacassin aux éditions Laffont, collection bouquins. OEuvres choisies de Campanella, précédées d’une notice, Paris Lavigne, 1844.
- LASALLIENS CAHIERS, **THE CONDUCT OF SCHOOLS A COMPARATIVE APPROACH**, Brother Léon LAURAIRE, F.S.C., MAISON SAINT JEAN-BAPTISTE DE LA SALLE - 476, VIA AURELIA – ROME, ROME 2011.
- CAMPANELLA THOMAS, **La cité du soleil**, Spanish translation and commentary by Emilio G. Estebanez, Zero, Madrid 1984.
- PHYLLIS A. HALL, **The Appreciation of Technology in Campanella’s “The City of the Sun**, Technology and Culture, Published by: The Johns Hopkins University Press and the Society for the History of Technology, Vol. 34, No. 3 (Jul 1993).
- BULEIGH MICHAEL, **EARTHLY POWERS The Clash of Religion and Politics in Europe, from the French Revolution to the Great War**, Harper Collins e-books.
- ROUSH SHERRY, **Selected Philosophical Poems of Tommaso Campanella: A Bilingual Edition**, The University of Chicago Press | Chicago and London, Printed in the United States of America 2011.
- MORRISON TESSA, **“The Architecture of Andreae’s Christianopolis and Campanella’s City of the Sun** in Proceedings of the Society of Architectural Historians, Australia and New Zealand: 30, Open, edited by Alexandra Brown and Andrew Leach (Gold Coast, Qld: SAHANZ, 2013), vol. 1.
- ROSEN EDWARD, **Galileo’s Misstatements about Copernicus**, Published by: The University of Chicago Press on behalf of The History of Science Society Stable, Isis, Vol. 49, No. 3 (Sep., 1958).
- J. REISS TIMOTHY, **Structure and Mind in Two Seventeenth-Century Utopias: Campanella and Bacon**, Yale French Studies, No. 49, Science, Language, and the Perspective Mind: Studies in Literature and Thought from Campanella to Bayle (1973), Published by: Yale University Press.
- NELSON ERIC, **UTOPIA THROUGH ITALIAN EYES: THOMAS MORE AND THE CRITICS OF CIVIC HUMANISM**, Published by Renaissance Society of America, Renaissance Quarterly, Volume 59, Number 4, Winter 2006.

- RUTH HAGENGRUBER, **ON SCARCITY AND ABUNDANCE. THREE TYPES OF SOCIAL REASONING IN MORE'S, CAMPANELLAS AND BACON'S UTOPIAN DRAFTS.** In: Ramiro Aviles, Miguel: UTOPIA. La Busqueda de la Sociedad ideal. Madrid 2010.
- GEORGE ORWELL, **The City of Sun:** Panopticon, Synopticon and Omnipticon – Big Brother and the Giant with Thousand Eyes, L O W P O W E R S O C I E T Y, emanuel dimas de melo pimento
- ARCHIE BROWN, **The Rise and Fall of Communism,** Harper Collins e-books
- LEON ZELDIS, **Campanella's 'City Of The Sun'** An electronic copy,link: <http://pictoumasons.org/library/Zeldis,%20Leon%20~%20Campanella's%20City%20of%20the%20Sun%20%5Bpdf%5D.pdf>

MominounWithoutBorders



Mominoun



@ Mominoun_sm



مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث
www.mominoun.com

الرباط - أكادال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : +212 537 77 99 54

الفاكس : +212 537 77 88 27

info@mominoun.com

www.mominoun.com